

على طريق حلم وحدة المغرب العربي:

"القواسم المشتركة لتحقيق وحدة شعوب المغرب العربي"

د. مومن العمري: قسم التاريخ جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة2، الجزائر

مقدمة:

قبل أن نتطرق إلى القواسم المشتركة التي تشترك فيها شعوب المغرب العربي يجدر بنا أن نتعرض إلى التعريف بمصطلح " القواسم المشتركة أو المقومات كما يسميها البعض أيضا"، ونقصد بها تلك العناصر والخصائص التي تتميز بها مجموعة بشرية عن غيرها من المجموعات الأخرى كما يمكن أن نسميها القواسم المشتركة التي تجمع بين أفراد امة واحدة أو مجموعة من الدول تتقاسم شعوبها القواسم أو الروابط نفسها، ويمكن لنا أن نحصر هذه المقومات في اللغة والدين والوحدة الجغرافية والتاريخية والعادات و التقاليد والمصير المشترك.

نستدل على ما سبق بما أورده الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العربية الحديثة في الجزائر عندما قال: « تختلف الشعوب بمقوماتها كما يختلف الأفراد ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته و مميزاتها كالأشأن في الأفراد فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات و تلك المميزات وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعبر بها ويتأدب بآدابها والعقيدة التي يبني حياته على أساسها و الذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات»⁽¹⁾.

إضافة إلى هذه المقومات هناك من الكتاب والمختصين في علم الاجتماع والفلسفة والتاريخ من يذكر عناصر أخرى منها: الوحدة الثقافية والوحدة الجنسية والعرقية وهو ما ينطبق قولاً وفعلاً على منطقة المغرب العربي بحيث تتميز بشخصية واحدة تتمثل فيها كل هذه المقومات والعناصر بل وتصبغها بصبغة واحدة خاصة بعد دخول الإسلام إلى منطقة المغرب العربي وامتزاج العنصر الأمازيغي و يمثله السكان الأصليين للمنطقة والعنصر العربي القادم من شبه الجزيرة العربية الحامل للدين الإسلامي والرسالة الإسلامية بكل ما فيها من قيم وحضارة وعلم وبهذا صار العنصران يشكلان عنصراً واحداً وهوية واحدة وشخصية واحدة ميزت المنطقة وأعطت لها بعداً حضارياً وثقافياً جديداً كما أصبح لها تاريخاً ومصيراً مشتركاً وهو ما ذكره الشيخ عبد الحميد بن باديس في موضوع له بمجلة الشهاب تحت عنوان: "كيف صارت الجزائر عربية" حيث يقول: « ما من تكبير أن الأمة الجزائرية- الشعب الجزائري- كانت أمازيغية بربرية من قدم عهداً وأن أمة من الأمم التي اتصلت بها استطاعت أن تقلبها عن كيانها ولا أن تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها بل كانت تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها ويصبحون كسائر أبنائها فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحا إسلامياً لنشر الهداية لا لبسط السيادة وإقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس لا فرق بين العرب الفاتحين و الأمازيغ أبناء الوطن الأصليين دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام وتعلموا لغة الإسلام العربية طائعين ووجدوا أبواب التقدم في الحياة مفتوحة في وجوههم فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة ونافسوهم في مجالس العلم وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش وقاسموهم كل مرافق الحياة فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية يعربون عنها وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة فاتحدوا في العقيدة والنحلة كما اتحدوا في الأدب واللغة فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً غاية الاتحاد متمزجاً غاية الامتزاج وأي اختراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان»⁽²⁾.

وإذا كان مقال الشيخ ابن باديس يتحدث عن الجزائر فإن ذلك ينسحب انسحاباً تاماً عن بلاد المغرب العربي قاطبة أي أن العنصران الأمازيغي والعربي قد اندجما في كل الأقطار المغاربية وشكلا عنصراً بشرياً واحداً أصبح يمثل شعباً واحداً ودولة واحدة

من جهة أخرى أخذت مسألة التسمية للمغرب العربي حيزا كبيرا في كتابات الباحثين والمختصين، واختلفت التسمية من كاتب إلى آخر ومن مؤرخ إلى آخر وكذلك الحال بالنسبة للهيئات المختصة أو حتى بعض الجهات السياسية ولذلك وجب علينا الإشارة إلى هذه المسألة في سياق الحديث عن المقومات والأسس المشتركة لوحدة المغرب العربي .

المبحث الأول: التسمية التاريخية للمغرب العربي

تعني كلمة "مغرب" باللغة العربية "الغرب" لأنها تدل عادة على مجمل المناطق الواقعة غرب وادي النيل، أي بتعبير حديث (ليبيا، تونس، المغرب، موريتانيا والجزائر) (3).

و يرى البعض أن للمغرب العربي خصوصيات جغرافية وحضارية شكلت له إطارا متميزا عن المشرق العربي (4).
و يعتبر المغرب العربي جزءا من الأمة العربية و هو الجناح الغربي المقابل للجناح الشرقي (المشرق العربي) (5). من جهة أخرى يرى البعض أن كلمة "مغرب" تعني المملكة المغربية، ولكي يعطوا وصفا عاما للضفة الجنوبية من البحر المتوسط فان الباحثين والسياسيين أطلقوا عليه اسم المغرب العربي أو المغرب الكبير.

هذا و يعيد بعض الجغرافيون والمؤرخون تشكل الإطار الجغرافي و الاسم التاريخي " للمغرب " إلى المرحلة الوسيطة (مرحلة العصور الوسطى) وهو يمتد من برقة إلى طنجة الخضراء. واصطلاح "المغرب" يعني تحديدا الأقاليم الواقعة غرب مصر كما ذاعت خلال تلك العصور تسمية (إفريقية)، وبغض النظر عن هذه التسميات فقد ظلت المنطقة تشكل وحدة استراتيجية واحدة يحددها شرقا خط عمودي ينزل من صقلية باتجاه جنوب البحر الأبيض المتوسط، ويحدها غربا مضيق جبل طارق وتنتهي جنوبا عند بلاد السودان (6).

كما يرى المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان « بأن تونس والمغرب والجزائر مجتمعة تؤلف وحدة جغرافية و اثنولوجية مستقلة عن بقية أجزاء القارة حتى أنها عرفت باسم " إفريقيا الصغرى " تميزا لها عن بقية أجزاء القارة كما أطلق عليها اسم "بلاد الأطلس"، وهي تسمية جغرافية نظرا لسطحها الجبلي ولارتباطها منذ أقدم العصور بروابط إقليمية طبيعية وسياسية خاصة و وثيقة (7).

وبالرجوع إلى المؤرخ القديم " هيرودوت " فقد أطلق اسم " ليبيا " على النطاق الجغرافي الممتد من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي، كما أطلق اسم " الليبيين " وهي تسمية مشتقة من التسمية الجغرافية على سكان هذا الإقليم، وهذا تمييزا لهم عن جاورهم من سكان جنوب الصحراء «.

أما القرطاجيون فقد أطلقوا تسمية " الافري " على السكان الأصليين للمنطقة .وقد تعني الكلمة أيضا اسم إفريقيا التي أصبحت تشمل كامل القارة أي القارة الإفريقية (8).

أما الإغريق فقد أطلقوا تسميتان مختلفتان على سكان المنطقة، وهذا بتقسيمهم قسمان حسب البنية الجغرافية أو الطبيعية بحيث أطلقوا على سكان القسم الشمالي من إفريقيا اسم " ليبو " أو " ليبيا " والذي تسكنه العناصر ذات البشرة البيضاء، أما سكان القسم الجنوبي من إفريقيا وهو ذو طابع صحراوي، فقد أطلقوا عليه اسم " بلاد الأحباش السود " وبعد انتصار الرومان على القرطاجيين فيما عرف بالحروب البونية الثالثة بسطوا سلطانهم على المنطقة وأطلقوا عليها اسم " إفريقية " أو " ولاية إفريقية البر وقنصلية " وهذا دلالة على تبعية هذه المنطقة مباشرة للقرطاجيين.

أما نوميديا فنطلق على المنطقة المستقلة، التي تلي ولاية إفريقيا وموريتانيا للدلالة على المنطقة الغربية. وعندما اتسعت المساحة أو الرقعة الخاضعة للنفوذ الروماني جزأ القسمين السابقين الذكر إلى قسمين، حيث قسمت نوميديا إلى شطرين شطر شرقي و شطر غربي، وسرى نفس الشيء على موريتانيا التي قسمت بدورها إلى قسمين موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية (9)، وهذا تطبيقا للسياسة الاستعمارية التي دأب عليها الرومان المتمثلة في سياسة التفتيت والتقسيم والتجزئة وهي السياسة التي عرفت

فيما بعد بسياسة (فرق تسد) حتى تسهل عليهم السيطرة والهيمنة، ويقضون على أسباب قوة هؤلاء القوم والمتمثلة أساسا في وحدتهم.

و عندما زال نفوذ الرومان وحل محلهم البيزنطيون أبناء عموماتهم بعد القضاء على نفوذ الوندال أصبح مدلول إفريقية أكثر اتساعا، وشمل كل المنطقة التي تمتد من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. وبحلول المسلمين محل البيزنطيين بعد هزيمتهم النكراء في عهد آخر ملوكهم وهو " جرجير"، فإن المسلمين حافظوا على التسمية نفسها، وهي " إفريقية " حيث كانت هذه التسمية الأكثر استعمالا وشيوعا، كما ذكرها الخليفة عمر بن الخطاب في رسالته المشهورة إلى عمر بن العاص بعد أن أستأذنه في فتح بلاد المغرب، فنهاه عن ذلك قائلا له: "إنها ليست إفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بما لا يغزوها أحدا ما بقيت " كما جاء ذكر اسمها في كتاب " فتوح مصر والمغرب " لابن الحكم الذي أشار إليها في حديثه عن مدينة قرطاجنة التي كانت عاصمة السلطة في إفريقيا، وهو ما ذهب إليه أيضا المؤرخ " أبو عبد الله البكري " حينما ذكر بأن "إفريقية" تمتد شرقا حتى برقة، وغربا حتى طنجة. وتبقى هذه التسمية سارية المفعول حتى ظهر اسم آخر جديد هو "المغرب" (10)، لكن مدلوله لا يشمل نفس المنطقة السابقة الذكر بل يشمل فقط منطقة القيروان أو المنطقة التي تمتد من طرابلس شرقا إلى بجاية، أو ما عرف بالمغرب الأدنى.

وحسب العديد من الدراسات فان مصطلح المغرب، لم يعرف إلا بعد ظهور الفتنة الكبرى بين الخليفة علي بن أبي طالب وخصمه معاوية بن أبي سفيان، حيث أطلقت هذه التسمية لتحديد الإقليم الغربي للعالم الإسلامي، وهو ما أشار إليه " ابن الأثير " في معرض حديثه عن الفتنة الكبرى حيث ذكر بان الخليفة "علي بن أبي طالب " خاطب رجاله بالكوفة قائلا: " تجهزوا لمحاربة عدوكم من أهل المغرب"، كما كلف عامله على البصرة " ابن العباس " بالاستعداد وتهيئة الناس مخاطبا إياه: " قد اجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب".

بينما يرى بعض الكتاب بان تسمية " المغرب " أطلقتها العرب الفاتحون على منطقة شمال إفريقيا تمييزا لها عن منطقة المشرق العربي، وهذا بعد انتشار الإسلام والعروبة بمنطقة شمال إفريقيا دلالة على العهد الجديد والوحدة التي أصبحت تجمع هذه المنطقة مع المشرق العربي وهكذا ظهر مصطلح " المغرب العربي " الذي قضى على جميع التسميات القديمة التي ترمي إلى تجزئة منطقة شمال إفريقيا إلى أجزاء متعددة يجعلها عرضة لأطماع القوى الطامعة فيها (11).

هذا ونشير أن منطقة المغرب العربي قد عرفت أيضا العديد من التسميات المختلفة، ومنها جزيرة المغرب لأنها محاطة من البحر والصحراء من عدة جهات، كما عرفت باسم إفريقيا الشمالية وهي تسمية يغلب عليها الطابع الإقليمي والجغرافي لوقوعها شمال القارة كما سميت بإفريقيا البيضاء لأن معظم سكانها ذوي بشرة بيضاء، كما عرفت ببلاد الأطلس نسبة إلى تضاريسها و سلاسلها الجبلية و منها سلسلة الأطلس كما عرفت أيضا ببلاد المغرب العربي الكبير، أما في الفترة الأخيرة فالتخذت تسمية ذات طابع سياسي و هي بلدان " الاتحاد المغاربي " الذي ظهر رسميا سنة 1989م.

والحقيقة إنه من الصعب تحديد تسمية واحدة على حد تعبير المؤرخ " عبد الله العروي " في تساؤلاته: « أي بقعة أرضية تعنون، إذا قلنا " شمال إفريقيا " اعترض علينا الجغرافيون لأننا لم ندخل فيها مصر، إذا قلنا " غرب شمال إفريقيا " كنا أقرب إلى الواقع إذا قلنا أرض البربر استعملنا عبارة كانت شائعة في أوربا في بداية العصر الحديث ثم نبذت لما تحمل من خلفيات سياسية وربما عرقية... » (12)، وعلى ذكر البربر فإن المصادر التاريخية تؤكد أن السكان الأصليين لمنطقة المغرب العربي هم البربر من غير تمييز بين أجناسهم، ولا يعرف بالضبط من أين جاء هؤلاء البربر إلى هذه البلاد، ولا متى عمروها ولكن علماء الأجناس البشرية فندوا كل الأقوال وذكروا بأنه يوجد خليط من أجناس كثيرة أمت هذه البلاد يوم كانت جسرا يعبره الناس من الشرق إلى الغرب بطريق مصر فطرابلس، ومن الغرب إلى الشرق بطريق جبل طارق.

أما علماء الجيولوجيا فكان لهم رأي آخر، وهو أن الشمال الإفريقي كان في القدم متصلا بالبلاد الأوربية صلة مباشرة وكانت صلة القارتين بعضهم ببعض صلة قوية متينة، ويرى بعضهم أن سكان شمال إفريقيا من أصل أوروبي 13، بيد أن علماء آخرين يزعمون أيضا أن البربر إجمالا لا ينتمون إلى الجنس البشري الذي عمر الجنوب الأوروبي، وهو الجنس الخليط المسمى بجنس حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد لاحظ المختصون في علم الأجناس بأن هناك من البربر من يجري في عروقه الدم الأسود، وهم يتميزون بقصر القامة و اسوداد الشعر والعيون، وفيهم من هم ذوا أجسام طويلة هزيلة يشبهون قدماء المصريين، وفيهم من هم ممثلو الأجسام ذووا الوجوه والأنوف العريضة، وفيهم بيض البشرة زرق العيون مستطبلوا الجمجمة يشبهون أهل الشمال الأوروبي 14، وبالنسبة للأصول التي ينحدر منها البربر، فيرى بعض الباحثين في علم الجماجم البشرية أنه تم اكتشاف أربع جماجم : الأولى في الجزائر، الثانية في ليبيا، الثالثة في اليمن والرابعة في فلسطين ووجد بين هذه الجماجم تطابقا كاملا وعمرها يقارب 50 ألف سنة، وفي هذا الصدد يقول أ.د رشيد الناظوري في كتابه " المغرب الكبير " ما يأتي: « وفيما يتعلق بإنسان العصر الحجري القديم و الأوسط في المغرب، فقد عثر على فك إنسان ينتمي إلى هذه المرحلة في كهف " هوافيخ " غرب درنة، و قد استخدم الكربون المشع (14) في اختبار عمر الفحم الخشبي الذي وجد في مواقع هذا الموقع والمنتمية لهذه المرحلة، وقد أعطي عام 43000 ق.م كتاريخ له و قد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الإنسان مع إنسان (نياندرتال) في فلسطين، كما أن هذا التشابه أيضا يمكن ملاحظته في الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة، مما يؤيد وجود نوع من الصلات الحضارية و البشرية بين جنوب غربي آسيا وجنوب شرق ليبيا، و يتجه العلماء إلى اعتبار إنسان (مشتتة العربي) الذي اكتشفت جمجمته بالجزائر متشابها مع إنسان " نياندرتال " 15.

وهكذا نستنتج من خلال ما سبق أن علم الجماجم أثبت بالدليل العلمي التشابه بين إنسان شرقي ليبيا وإنسان الجزائر وإنسان (نياندرتال) في فلسطين مما يدل على أصلهم الواحد، وحيث أن الهجرات كانت تتم من الشرق إلى الغرب و بما أن علماء السلالات أثبتوا علميا أن مصدر هجرات حوض البحر المتوسط هي شبه الجزيرة العربية، فإن الاحتمال الأرجح بل المؤكد أن البربر قبائل قدمت من شبه الجزيرة العربية، و منطقة الهلال الخصيب عبر صحراء سيناء و مصر واستوطنت شمال إفريقيا في هجرات متتالية سابقة للهجرة الإسلامية ويعود تاريخ أقدمها إلى ما قبل 50 ألف سنة (16) وهذا ما يذهب إليه المؤرخ الطبري حيث يقول " بأن البربر هاجروا من بلاد جنوب الجزيرة العربية عبر الشام ويواصل قائلًا " و زعم هشام بن محمد الكعبي أن افريقش بن قيس بن يعرب بن قحطان هم متوجهة نحو إفريقيا فاحتملهم حتى السواحل حتى أتى بهم إفريقيا ففتحها و قتل ملكها " جرجس " و اسكنها البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين الذين كان احتمالهم معه من سواحل الشام (17) والمذهب نفسه يذهب إليه ابن خلدون عندما يتكلم عنه افريقش فيقول: " هو افريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة غزا المغرب و افريقية و قتل الملك " جرجس "، كما يرى بأن البربر هم بقايا القبائل القديمة التي كانت تسكن فلسطين و التي انقرضت باستثناء البربر " حيث يقول: " و كان بين بني فلسطين هؤلاء و بين بني إسرائيل حروب كثيرة وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها وذرث امة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد ولم يبق إلا البربر (18).

وهذا الطرح يؤكد المؤرخ الأمريكي " وليام لا نغر " في كتابه " موسوعة تاريخ العالم " حيث يفند فكرة هجرة البربر من أوروبا، أي الهجرة من الشمال إلى الجنوب و يقر مع جميع مؤرخي الهجرات البشرية إلى أن الهجرة في حوض المتوسط تمت من جنوبه إلى شماله، و ليس العكس لأنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا كتلة من الجليد لا حياة فيها لا حيوانية ولا بشرية، كان شمال إفريقيا مأهولا بالبشر حيث يقول: " و انتشر فرع من عناصر البحر المتوسط و الصحراء الطويلة الرؤوس وأقاربهم من العرب و البربر وغيرهم في جنوب أوروبا وشمال إفريقيا و الشرق الأدنى " (19).

إذن فالمؤرخ الأمريكي يعتبر البربر والعرب تجمعاً جنسياً وعرقياً واحداً وهناك كثير من المؤرخين أيضاً يقرون بأصول البربر العربية (السامية) الشرقية.

والسؤال الذي نطرحه هو: هل تشكل بلاد المغرب أمة واحدة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تدعونا إلى تعريف مصطلح الأمة الذي يعرفه البعض بقوله: " الأمة هي الوحدة الاجتماعية المنسجمة أو المشتركة في حد أدنى من الانسجام في أسسها الفكرية و عواطفها و اتجاهاتها(20).

إن العوامل المادية كالأرض أو الدم أو العرق التي تكونها أو تعين على تكوينها آخذة نحو الضعف، و إن العوامل المعنوية كاللغة و الثقافة و العقيدة يتزايد أثرها كلما تقدمت الحضارة.

إن مرجع العوامل المعنوية من اللغة و الثقافة والتاريخ إلى عامل الفكر والعقيدة.

من خلال هذا التعريف نطرح التساؤل الثاني الآتي: هل ما جاء في هذا التعريف ينطبق على شعوب المغرب العربي أم لا؟ الجواب سيكون في طيات المباحث الآتية و التي سنرى من خلالها إن كانت المقومات و الأسس المشتركة بين بلدان و شعوب المغرب العربي تشكل مفهوم الأمة أم لا.

المبحث الثاني: الوحدة الجغرافية و التاريخية

المطلب الأول: الوحدة الجغرافية

يعتبر الإقليم عنصراً من عناصر وحدة أي شعب من الشعوب، يعيش على رقعة جغرافية متجانسة لأنه يشكل الوعاء الجغرافي أو الطبيعي الذي يجمع بين أفراد مجتمع، أو شعب أو أمة واحدة و هو ما يوحد بين أفراد هذا الشعب في أحاسيسهم ومشاعرهم و حتى طريقة تفكيرهم، و نمط حياتهم كما يجمع بين مصالحهم و غاياتهم وهذا ما يؤكد العلامة ابن خلدون بقوله: " إن وحدة البيئة تؤدي في النهاية إلى وحدة الأخلاق والعادات " (21).

وهو ما يذهب إليه المفكر الفرنسي "أرنست رينان" عندما يقول: " أن الأمة تجد أساسها قبل كل شيء في وحدة الأرض".

و من هنا نلاحظ أن طبيعة الشعب تختلف باختلاف طبيعة الإقليم(22).

إن جغرافية المغرب العربي جعلت منه عبر التاريخ منطقة مفتوحة للأطماع الأجنبية(23)، و لهذا فموقع المغرب العربي الجغرافي يتحكم في تاريخه و هو يتحكم في مستقبله، أما من حيث الحدود الطبيعية فهو يحده المحيط الأطلسي من الغرب البحر الأبيض المتوسط، من الشمال و الشمال الشرقي والصحراء من الجنوب، ويفصله عن أوروبا مضيق جبل طارق (14 كلم) و مضيق صقلية (140 كلم) إن هذا الموقع الجغرافي أعطى أهمية بالغة للمنطقة .

إن جزيرة " المغرب " تغطي تقريبا مساحة 4.670.000 كلم²، فالجزائر بصحرائها تحتل أزيد من النصف ب 2.381.741 كلم²، ثم ليبيا 1.759.540 كلم²، أما المغرب فيمتد على مساحة 445.050 كلم²، و أخيرا تونس التي لا تتعدى مساحتها 164.150 كلم²، إن مساحة المغرب الإجمالية لا تغطي حتى 1/6 من مساحة قارة إفريقيا ((30 مليون كلم²)).

كما يرى العديد من الباحثين بأن الاستقرار في بقعة معينة، ولمدة طويلة من شأنه أن يعزز الروابط والصلات بين الأفراد، وهو يتبع تبادل المنافع وتفاعل المشاعر والأحاسيس واحتكاك الآراء والأفكار وتبادل وجهات النظر بشأن المشكلات التي تعترضهم، ومن ثمة تنشأ الرابطة القومية بينهم(24)، وكبرهان على ما يقوله هؤلاء الباحثين يضيرون مثلا حيا على ذلك بقولهم أن عدم تشكل دولة واحدة بين الشعب الأمريكي والانجليزي سببه انعدام الوحدة الجغرافية، ولو توفر هذا العنصر لكان الشعب شعبا واحدا وأمة واحدة خاصة مع توفر وحدة بعض المقومات كوحدة اللغة والدين، بينما نلاحظ العكس تماما لدى الشعب

السويسري الذي يشكل دولة واحدة وشعب واحدا رغم اختلافه في اللغة وبعض المقومات الأخرى لكنه يمتلك وحدة الإقليم⁽²⁵⁾.

وإذا كان هذا حال هذه المناطق مع وجود العديد من التعقيدات الطبيعية والتضاريسية وحتى الاختلاف في بعض المقومات الأساسية، فإن الأمر جد مختلف مع منطقة المغرب العربي التي نعتبرها الوحيدة في العالم التي تجمع عدة أقطار لا يفصل بينها أي حاجز طبيعي تضاريسي، فالمنطقة متجانسة تضاريسيا وينعدم بها أي عائق من شأنه تعقيد الاتصال أو الانتقال و كأننا في منطقة تضاريسية واحدة، وهو ما ينطبق أيضا على بقية العناصر الأخرى من مناخ وطقس ومياه ونبات وهو ما يعطي للمنطقة وحدة إقليمية، تضاريسية وطبيعية واحدة، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال وهذا في ظل انعدام الحواجز الجغرافية التي ألف الجغرافيون جعلها كعلامات للحدود⁽²⁶⁾.

ويرى المتخصصون في الدراسات الإستراتيجية أن أهمية الوحدة الجغرافية والطبيعية للمغرب العربي تكمن في:

1- منطقة ربط بين مختلف القارات.

- إفريقيا السوداء في الجنوب.

- أوروبا من الشرق ومن الشمال.

- أمريكا من الغرب عن طريق المحيط الأطلسي .

- آسيا الصغرى أو الشرق الأوسط من الشرق.

وهو ما عبر عنه " أندري سيفريد " بقوله : « كثير من الدول لها مواقع مفتوحة لا متناهية، تطل بها على الممكن وعلى

المستقبل، ومنها دول المغرب»⁽²⁷⁾.

2- ويتميز المغرب العربي عن بقية إفريقيا بخصوصية ظروفه الطبيعية، ولهذه الظروف أثرها على السلوك الإنساني للمنطقة .

- كما يتميز المغرب العربي عن بقية إفريقيا ليس فقط بمناخه وحضارته ولكن أيضا بأنه بلد الأطلس بمناظره المتنوعة وبجباله المحيطة بمضابه وتلاله⁽²⁸⁾.

وبصفة عامة فإن إفريقيا الشمالية هي أرض الجبال ماعدا تونس التي لها معدل علو ب: 300م وجبالها لا تتعدى 1500م، المغرب (2500-4000م) والجزائر أراضيها عالية بمعدل 900م. إن هذا التنوع يلعب دورا مهما في الاختلاف بين سكان الجبال والسكان الآخرين.

3- من جهة المناخ فإن المغرب العربي هو منطقة اتصال بين المنطقة الحارة والباردة إنها منطقة خلاف بين الرطوبة والجفاف حيث يزداد التصحر كلما اتجهنا جنوبا⁽²⁹⁾.

يتميز المغرب بصيف حار وشتاء بارد إذ تصل درجة الحرارة شتاء إلى التجمد وقد تصل إلى 50 يوما في السنة بالمضاب العليا وصيف حار قد تصل حرارته 40° أو أكثر.

كما يتميز المغرب العربي باختلاف كميات التساقط وعدم انتظامها من منطقة لأخرى، مما يجعله عرضة للجفاف في المناطق الممتدة بين الجزائر العاصمة وبنزرت حيث يتعدى التساقط 800 مم.

4- أما بالنسبة للظروف المناخية أثر في تحديد نوعية التربة المغاربية إذ تشكل التربة الكلسية أغلبيتها.

5- على صعيد الغطاء النباتي فإن ندرة الأمطار وفقير التربة لم تهيئ الأجواء لنمو النباتات، فعوامل التصحر و التعرية لها أثر على التربة وخاصة كلما اتجهنا إلى الداخل وإلى الجنوب فالخلفاء تميز الغطاء النباتي⁽³⁰⁾.

إن الموقع الجغرافي لشمال إفريقيا يلخص بجملة واحدة " أنه بلد الأطلس " إن المغرب الجزائر وتونس ليست سوى أجزاء من الأطلس وتجمعهم يمثل الأطلس كله، إنه الهوية⁽³¹⁾.

إن المناخ وطبيعة الأرض لهما تأثيرا كبيرا على الأشخاص، وقد كتب - ج - ديسوا قائلا: « تظهر إفريقيا الشمالية في شمساعتها وذلك في مجال البحر الأبيض المتوسط المتنوع، حيث تبدو في المغرب الزراعة الاستبسية والزراعة الرعوية بينما الفلاحة ذات المردود، نجدها مزدهرة في المناطق المسقية»⁽³²⁾.

كما أن لطبيعة الأرض تأثيرا واضحا على النمط المعيشي وتنقل السكان.

إن القسم الأكبر من سكان شمال إفريقيا يتمركزون في السهول الساحلية وهذا ما ساعد على نمو المدن الكبرى، كما أن الجبال المسقية تشكل مناطق مناسبة للفلاحة.

عموما فإن حركة التنقل أسهل بين الشرق والغرب منها بين الشمال والجنوب .

إن الوحدة الجغرافية للمغرب العربي في تنوعها شكلت ظاهرة قبلية، وخصوصا القبلية المتنقلة، لقد أخذت هذه الظاهرة في التلاشي، وذلك بسبب التطور الاجتماعي و الاقتصادي و اندماج المجتمع المغربي.

6- وحدة التضاريس: حيث تمثل منطقة جغرافية واحدة بسهولها وهضابها وجبالها ويضاف إلى ذلك موقعها الجغرافي والفلكي الذي يجعل منها كتلة جغرافية رئيسية ذات تأثير إقليمي كبير خاصة بالنظر إلى مساحتها 5783441 كلم² (33).

7- اعتبار المنطقة حلقة وصل وملتقى الطرق التجارية التي تجمع بين ثلاث قارات (إفريقيا، آسيا و أوروبا)، ناهيك عن ارتباطها و تحكمها في العديد من المضائق البحرية والمسطحات المائية (مضيق جبل طارق، البحر الأبيض المتوسط و المحيط الأطلسي).

وهذا الموقع الجيو استراتيجي جعل المغرب العربي ذا أهمية بالغة على الصعيدين الإقليمي والدولي، من حيث التوازنات والتكتلات الجهوية وفي مجال العلاقات الدولية .

بالإضافة إلى ذلك يمتلك المغرب العربي إمكانات اقتصادية ومادية هائلة سواء منها الزراعية أو الصناعية أو المعدنية و الطاقوية، ناهيك عن الثروة الحيوانية والبحرية التي تتمتع بها أقطار المغرب العربي، إضافة إلى الثروة البشرية التي يمثل منها الشباب 90% وهي القوة الضاربة والمؤثرة في أي مجتمع⁽³⁴⁾.

وهو ما يؤكد العديد من الكتاب نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر " محسن التومي " الذي يذكر في هذا الصدد بأن: « المعطيات الجغرافية التي شكلت المغرب العربي ككيان متجانس، وذلك من خلال دراسة التضاريس والمناخ والمحيط ... هذه المعطيات دلالة على وجود شخصية مادية مغربية ... كما أن المعالم الطبيعية قد اقترنت في ذاكرة تاريخ المنطقة حيث أنها ساهمت بمساعدة المقاومة الثقافية للسكان الأصليين في عزل التواجد القرطاجي والروماني والوندالي في بعض المناطق الساحلية مما جعل هذا التواجد أجنبيا بالنسبة لباقي المنطقة كما ساهمت كذلك في تشكيل أرضية مناسبة للحملات الإسلامية »⁽³⁵⁾.

ما هي الدروس التي نستخلصها من الوحدة الجغرافية للمغرب العربي ؟

إن التجانس الجغرافي جعل المغرب العربي منفردا عن بقية إفريقيا أي أن له شخصية متميزة وفي هذا يقول قوتيه: " هناك هوية " (36).

وهكذا نخلص إلى القول بأن الجغرافيا في المغرب العربي تشكل إحدى العوامل الأساسية لوحدة مغربية وتوفر أرضية صالحة لبناء مجتمع مغربي موحد.

المطلب الثاني: الوحدة التاريخية:

إذا كانت الجغرافيا عامل وحدة في المغرب العربي، فما هو إسهام ومشاركة التاريخ في الأخذ بيد هذه الوحدة؟ يقول شوبنهاور الفيلسوف الألماني أن " التاريخ للأمم بمثابة العقل للأفراد " .

إن هذا التعريف يعبر عن الأهمية البالغة التي يكتسبها التاريخ كمقوم أساسي من مقومات أي أمة والقيمة التي يمثلها في ماضي وحاضر ومستقبل الشعوب، وهو ما يذهب إليه أحد المؤرخين بقوله: «من أن المجتمعات الإنسانية لا تحي فقط في الحاضر وإنما تستمد وجودها من الماضي إذ يهتما كيف تكونت وتطورت وذلك لتستطيع أن تتبين وجهة نظرها في المستقبل»⁽³⁷⁾.

و هذا القول يؤكد لنا أن التاريخ هو ذاكرة الشعوب و ضميرها الحي و من أهم العوامل التي تدفع الأمم إلى الاعتزاز بقيمتها و الافتخار بأمجادها و التضحية من أجل تحقيق أهدافها لأنه بقدر ما نتفهم أحداث الماضي و نتعرف على أبعاده بموضوعية ووضوح بقدر ما يمكن أن نتصور أفاق المستقبل بكل ثقة واطمئنان و من هذا المنطلق يعتبر التاريخ اختصاصا غير محايد و علما هادفا يمكن توظيفه في عملية البناء والتشييد كما يمكن استخدامه في عملية الهدم و التشويه و لا سيما في الفترات الحاسمة من تاريخ الشعوب

وهو ما تؤكدُه المقولة القائلة بأنه لا وجود للحاضر أو المستقبل، إنما هو الماضي الذي يعيد نفسه كل مرة.

إن التاريخ هو ذاكرة الأمة وسجلها الذي يحمل بين طياته الآمها و آمالها، أمجادها وأفراحها و أتراحها فهو أساس حاضرها و راسم معالم مستقبلها و ملهمها في محنها وشدائدِها، إن التاريخ يمثل الماضي ببعديه الحاضر و المستقبل و بالتالي فإن هذا الماضي المشترك لأي شعب يشكل دائما البوتقة التي تنصهر فيها جميع تجارب هذا الشعب، وبالتالي ذوبانه في وحدة روحية و اجتماعية تجعله غير قابل للتفكك أو الانفصام وهو ما ينطبق انطباقا تاما وكليا وبشكل استثنائي على بلاد المغرب العربي التي عرف تاريخها أحداثا جعلت منه وحدة تاريخية متكاملة كما شكلت له مصيرا مشتركا أكدته العديد من الأحداث التي عرفتها منطقة المغرب العربي ومنها: تعرضها للعديد من الهجمات الاستعمارية عبر تاريخها الطويل ابتداء من الفينيقيين فالرومان فالوندال فالبيزنطيين⁽³⁸⁾

كل هذه الهجمات جاءتْها عن طريق البحر ومن شمالها.

دخول الإسلام إليها عن طريق الفتح الإسلامي للمنطقة عبر العديد من الفاتحين وعلى رأسهم عقبة بن نافع الذي وصل حتى طنجة شمالا مرورا بالجزائر وتونس وليبيا، وهو ما أعطى المنطقة واحدة من تسمياتها وهي المغرب الإسلامي كما أن الحملات التي عرفتها منطقة أوروبا وشمال إفريقيا وهو ما عرف بالحملات الصليبية قد انعكست على المنطقة سلبا وتمكنت من خلالها اسبانيا و البرتغال من بسط نفوذها على المنطقة لمدة طويلة لولا تدخل الدولة العثمانية الإسلامية و إبعادها لهذا الخطر الغربي الصليبي عن المنطقة بعد طلب النجدة الذي تقدمت به دول المنطقة و على رأسها الجزائر. لكن تراجع قوة العثمانيين ثم سقوط دولتهم و انهيار سلطاتهم جعل المنطقة عرضة لاستعمار غربي جديد تمثل في الحركة الاستعمارية أو الموجة الاستعمارية الحديثة⁽³⁹⁾ كما يطلق عليها بزعامة كل من فرنسا وبريطانيا و اسبانيا التي هيمنت على كامل المنطقة و اقتسمتها كمناطق نفوذ فيما بينها ضمن مؤتمرات دولية، عرفها القرن الثامن عشر ومنها مؤتمر فينا (1814- 1815) ومؤتمر برلين الأول و الثاني (1875/1884/1885) هذا الأخير الذي تم فيه الاتفاق بشكل نهائي على مناطق نفوذ كل دولة و اتبعوا ذلك باتفاقات ودية ثنائية لإنهاء بعض عناصر الخلاف حول تقسيم الغنيمة.

لقد دام ليل الاستعمار الخالك الطويل عشرات السنين عرفت خلالها منطقة المغرب العربي بروز العشرات من المقاومات و الثورات الشعبية التي تشابهت في الخصائص والمميزات لكن قوة المستعمر حالت دون تحقيقها لأهدافها، كما عرفت هذه المنطقة نضالات سياسية وهو ما عرف بالحركات الوطنية التي حملت لواء الدفاع عن حقوق الشعوب المغاربية وحقها في الحرية و الإنعتاق وكذلك التصدي لكل محاولات المسخ والتنصير و تدمير القيم الدينية و الوطنية و المقومات الأساسية للمجتمع المغاربي وقد تمكنت هذه الحركات الوطنية من وضع الأرضية الصلبة المتمثلة في بناء الوعي الوطني والثوري لدى أبناء المغرب العربي، وهو ما مكن من تحضير وإعداد الأجيال لثورات أخرى أكثر تنظيما ووعيا توجت بعد تضحيات جسام بتحقيق النصر والاستقلال وقد

كان للنضال والكفاح المغربي المشترك بالرغم من محطاته القليلة و عدم استمراريته، الفضل الكبير في إذكاء روح الأخوة و التضامن بين أبناء المغرب العربي وكان عاملا هاما في أضعاف القوات الاستعمارية الفرنسية وحد من قدراتها المادية التي استهلكتها واستنزفتها بعض المشاريع الرامية إلى عزل الثورات المغربية عن بعضها البعض كما فعلت مع الثورة الجزائرية عندما عملت على عزلها عن شقيقتها تونس والمغرب بإقامة الخطوط المكهربة على الحدود (خطي شال وموريس).

إن البلاد المغربية تشترك في الحقيقة في تاريخ عصور طويلة فأحداثه الكبرى وصفحاته المشرفة وعهود سلمه وحروبها وانتصاراته ونكباته كلها مشتركة بين هذه البلاد وهذا التاريخ الطويل يؤكد عراقة شعوب المغرب العربي وأصالتها، و يرد على كل الادعاءات الكاذبة والمغرضة التي حاول الاستعمار الفرنسي وأدواته ومفكره ومؤرخيه بثها ونشرها للإساءة للمجتمع المغربي والخط من قيمته التاريخية والحضارية فهذا الكاتب الفرنسي "غوتيه" يقول في إحدى كتاباته: (إن الدولة المغربية - يقصد البلدان المغربية- هي مثل الفقاع، يثبت في ليلة و يتعفن في صبيحة) (40).

وهو ما ذهب إليه أحد أبناء جلدته من العنصريين المؤرخ المعروف " شارل أندري جوليان " عندما حاول طمس تاريخ البلدان المغربية وأصولها الضاربة في عمق التاريخ حيث يقول : « إن إفريقيا الشمالية الفرنسية التي تشمل المغرب الجزائر وتونس ليست لها حالة مدنية دقيقة ! ».

إن التاريخ الذي يؤمن به المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان هو نفسه الذي يفند هذه المقولة ويثبت بما لا يدع مجال للشك بأن الشعوب المغربية لها أصول وجذور تاريخية تعود إلى فجر التاريخ وهي أكثر عراقة من الشعب الفرنسي نفسه.

المطلب الثالث: الوحدة اللغوية والدينية:

الفرع الأول: الوحدة اللغوية:

في كتاب صدر لمجموعة من الكتاب الفرنسيين جاء في الفقرة الأولى منه: « إن المكانة التي تتبوأها الشعوب في كتب التاريخ لا ترجع إلى القيمة الذاتية لتلك الشعوب وتعلقها بأرضها وحبها لوطنها وشموخها بأنفها واعتزازها بنفسها ومدى شجاعتها وعدالة قوانينها، بقدر ما تتوقف على فصاحتها في الإبانة على نفسها » (41).

في نفس السياق يرى فيخته، صاحب فلسفة الآنية أو الذاتية (إن وجود أمة من الأمم بوجود أنيتها التي هي شخصيتها وأن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة هي الدين واللغة وحب الوطن). ويضيف أن « اللغة هي رمز وجود الأمة ويقدر أصالة اللغة والمحافظة على اللغة الأصيلة تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب ... إن اللغة تؤثر في الشعب المتكلم بما تأثيرا لا حد له يمتد إلى تفكيره وإرادته و عواطفه و تصوراته وإلى أعماقه و أن جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير و متكيفة به... » (42).

إن اللغة في نظر الباحثين و الكتاب كمقوم رئيسي من مقومات شخصية و هوية أية أمة أو شعب من الشعوب لا يختلف عليها اثنان نظرا للمكانة التي يضعها فيها هؤلاء المفكرون باعتبارها رمز أصالة و عراقة و انتماء الشعوب و تعبير عن أمجادها وتاريخها كما يقول احد الكتاب بهذا الشأن: « إن التاريخ يعلمنا انه كلما و جدت أمة من الأمم إلا وكانت لها لغتها الخاصة و أن فقدانها لهذه اللغة يؤدي بها لا محالة إلى فقدان و عيها و أنيتها و ذاتيتها لان المحتل يحرص دائما على فصل ضحاياها عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التي هي صدى أسلافهم و القوة الطبيعية الحية لامتهم إذ أن اللغة المكتوبة هي الاسمنت الذي يضمن تماسك الوحدة الوطنية وهي العروة الوثقى التي تربط بين الأحياء و تصل بالأموات و يكتب بها سجل الأمم... » (43).

وهو ما ينطبق على دور اللغة العربية و أهميتها كعنصر توحيد بين أبناء المغرب العربي، و إذا كان بعض المفكرين و الكتاب الأجانب قد اختلفوا في تحد يد مكانة اللغة العربية و دورها الثقافي و الحضاري في المغرب العربي فمنهم من أنصفها ومنهم من حاول المساس بمكانتها لتمرير رسائل و تحقيق غايات الهدف منها معروف وهو محاولة ضرب كل ما هو عربي، و إحداث

انقساماً لغويًا بالمنطقة خاصة وأنهم أصبحوا يدركون دور اللغة كرابطة أساسية بين أفراد المجتمع الواحد وفي هذا الصدد يتساءل الكاتب و المؤرخ الفرنسي " روجي لوتورنو " Letourneau Roger " : هل توجد وحدة لغوية تجمعهم ؟ ويقصد بذلك سكان المغرب العربي ثم يجيب عن تساؤله بنعم ولا ليؤكد بأن اللغة العربية هي الأكثر استعمالاً والإنسان المغربي معروفًا بتكلمه اللغة العربية⁽⁴⁴⁾ .

في هذا الصدد يجب أن نشير بأن اللغة العربية الدارجة تعتبر أهم أداة ووسيلة للتخاطب والتقارب والجمع بين أفراد المجتمعات المغربية نظراً لسهولة فهمها واحتوائها على كلمات مشتركة بين الأقطار المغربية وتعبيراتها البسيطة على الأشياء وحتى في الفنون والعادات والتقاليد " أي كل ما هو مشترك " بين الشعوب المغربية وهو ما عمق من روح التقارب والمشاركة الأخوية بين شعوب المنطقة، كما تجدر الإشارة إلى أن هناك كلمات مشتركة ومتشابهة بين ما هو موجود في الأمازيغية واللغة العربية وتبقى فقط طريقة النطق هي المختلفة⁽⁴⁵⁾ .

وإذا كان السكان الأصليون للمغرب العربي قد احتفظوا بلغتهم إلا أنهم تعلموا اللغة العربية وأصبحت وسيلة تخاطبهم وبذلك اكتسبت المنطقة تسمية " المغرب العربي " و بذلك شكلت اللغة العربية الاسمنت الذي وحد المجتمع المغربي ومتن تماسكه الاجتماعي علماً بأن المتكلمين بالأمازيغية تختلف نسبهم من بلد إلى آخر ففي المغرب الأقصى تبلغ 36% وفي الجزائر 25% بينما في تونس لا تتجاوز 1%⁽⁴⁶⁾ .

وتعتبر اللغة العربية الرابطة الأساسية بين شعوب المغرب العربي ولغة الاتصال والتفاهم والحوار وهو ما أكده الشيخ عبد الحميد بن باديس في إحدى كتاباته حيث يقول : « اللغة العربية هي ذلك الرباط الذي يربط بين ماضي الجزائر وحاضرها ومستقبلها فهي لغة الدين والجنسية واللغة الوطنية المغروسة وما يقال عن الجزائر ينطبق على بقية الأقطار الأخرى في المغرب العربي باعتبارها جزءاً لا يتجزأ ... »⁽⁴⁷⁾ .

إن ما يؤكد أهمية ودور اللغة العربية؛ كعنصر جمع ووحدة بين شعوب المغرب العربي، هو تلك الحرب الشرسة والهجمة الوحشية الاستعمارية الفرنسية على اللغة العربية في البلدان المغربية، لأن مهندسي السياسة الاستعمارية الفرنسية يدركون جيداً الدور الخطير الذي تقوم به اللغة العربية في توحيد الشعوب المغربية واعتبارها اللحمة والاسمنت المشكل لجدار الفصل بين هويتين مختلفتين تمام الاختلاف أي الحضارة العربية الإسلامية و الحضارة الغربية الفرنسية ولهذا عمل هؤلاء الاستعماريين على وضع مخططات للقضاء على اللغة العربية وبالتالي تفكيك أهم صلة أو رابطة بين المغربية ضمن السياسة الاستعمارية المشهورة " فرق تسد " والتي وظفت لها كل الإمكانيات المادية و البشرية من علماء و باحثين مختصين في علم التربية و النفس و الاجتماع والتاريخ ورجال الدين و المبشرين، وهذا بغرض فرض المشروع الغربي التغريبي في البلاد المغربية و اعتماد اللغة الفرنسية كلغة رسمية وحيدة في التعليم والعمل و الإدارة ولغة تخاطب بين أفراد المجتمع، و كذلك اعتبارها لغة التمدن والتحضر ورمزاً للتطور، وقد سن المستعمرون لهذه الغاية ترسانة من القوانين التي من شأنها العمل على فرنسة اللسان والتفكير، وبالتالي وضع اللغة العربية في سلة المهملات.

لكن هيهات لقد فشلت كل المشاريع التي وضعها المستعمرون لسبب بسيط وهو أن اللغة العربية أصيلة أصالة المنطقة و سكانها. فهي لغة القرآن ولسانه الذي اختاره الله ليكون الناطق بشريعته ورسالته السماوية، وقد اعترف العدو قبل الصديق على لسان أبناء جلدته بقيمة اللغة العربية و أهميتها و دورها الحضاري والإنساني وهو ما جاء على لسان كتاجم و مؤرخهم و مفكرهم و منهم على سبيل المثال لا الحصر المفكرة الألمانية " زيغريد هونكة " التي الفت كتاباً تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » وحملته حقائق مثيرة عن اللغة العربية والحضارة العربية ودورها الإشعاعي العلمي والإنساني .

ويضيف البعض أهمية أخرى للغة العربية وهي أنها أساس الثقافة المغاربية ذات العناصر القرطاجية و الرومانية، التي آثرت على كل المغرب وجاء الإسلام لتهديبها وتدعيمها⁽⁴⁸⁾.

ويضيف المصدر نفسه بأن البربرية تاريخيا هي اللغة التي يتحدث بها سكان المغرب فهي لغة متنوعة فكل الحملات الأجنبية جوبحت من طرف السكان الأصليين الذين يرفضون أي نوع من الاندماج، كما يوضحه الكاتب نفسه بقوله: « هذا الرفض، هذه المقاومة للحفاظ على الهوية لم يتعد حدود الدفاع » ثم يضيف: « إن هذه الشخصية المنتجة أو الأخلاقية لم تنصهر إلا بمجيء الإسلام »⁽⁴⁹⁾.

وفي سياق الحديث عن الحقيقة اللغوية للمغرب يقول محسن التومي: « إن تعريب المغرب جاء بعد الإسلام فإذا كانت في تونس بصفة عامة فهي جزئية في الجزائر والمغرب فقد يكون الشخص مسلما ولكنه غير عربي اللسان »⁽⁵⁰⁾.

نستطيع الآن طرح السؤال الأتي: هل يشكل وجود العديد من اللهجات العربية والبربرية عائقا أمام الوحدة اللغوية العربية الفصحى ؟ و الجواب أنه بالرغم من الاعتراف بعمق جذور اللغة البربرية في التاريخ المغاربي إلا أنها كما يقول " محمد حسن " () إنما لغة شفوية غير قادرة على مواجهة اللغة العربية ... فهذا اللاتوازن بين لغة مقسمة إلى عدة لهجات ولغة القرآن والعقيدة الإسلامية التي تقبلها البربر بسهولة⁽⁵¹⁾.

فبعد تعريب المغرب العربي بمجيء الإسلام حافظ على لهجاته البربرية وهذا لا يعني تفوق اللغة العربية بالرغم من إبعادها وتهميشها و محاربتها خلال الحقبة الاستعمارية. إلا أن الإسلام الذي جاء كدين وكذلك كعنصر منظم للحياة الاجتماعية الثقافية والسياسية استطاع تحقيق هذا الإدماج وقضى على كل تنظيم قبلي أو جهوي كما انتشر عن طريق المدارس القرآنية لأنه من غير المعقول الحديث عن الإسلام دون الحديث عن اللغة العربية لأنهما متلازمان طوال التاريخ الإسلامي المغاربي .

إن تبني العربية من قبل شعوب المغرب حدث مرتبط بأسلمة إفريقيا الشمالية وفي هذا الصدد يقول " علال الأزرر " : « بعد دخول البربر في الإسلام تبني هؤلاء العربية طوعا كعنصر للثقافة المكتوبة، تاريخيا لم يشهر البربر أبدا عداؤهم لهذه اللغة، لقد عرفت انتشارا واسعا في شمال إفريقيا لقد مست المدن والقرى وذلك بفضل الزوايا »⁽⁵²⁾.

وفي هذا المجال أيضا يقول " العروي " متحدثا عن المغرب العربي « لقد كانت الحضارة ترمز إلى العقيدة الإسلامية واللغة العربية »⁽⁵³⁾. كما كتب المؤرخ ج- ديبوا قائلا: « لقد لعبت المدن والقرى دورا كبيرا في نشر اللغة العربية والإسلام إذ من غير الممكن فصل الثقافة عن الدين ولذا فقد كانت المدن بؤرة للحضارة الإسلامية. كما كانت المساجد جزءا لا يتجزأ من كل تجمع عمراني إذ يمثل دورا للعبادة والثقافة وغالبا ما كانت جامعات حقيقية (القبروان) »⁽⁵⁴⁾.

إذا كان تعريب المغرب مرتبطا بأسلمته فله كذلك علاقة بالحضارة الإسلامية لقد كان لمدة ثلاثة عشر قرنا من وجود الإسلام أثرا في تعريبه وإدخاله في حضارة دينية ولغوية فاسحا المجال لمجتمع أكثر تمدنا.

لقد كان لهذا التيار الإسلامي العربي " الإسلام واللغة العربية " أثرا عميقا في التطور الثقافي لكل المنطقة وكان العلماء ينتقلون لنشر تعاليم الدين وتعليم القرآن لأنه لم يكن لديهم مقرا دائما وفي هذا يقول " محمد زبير " : « إن قانون الجنسية الحالي الذي يجعل من التونسي أجنبيا في المغرب أو الجزائر لم يكن موجودا في أيام العلماء لأنه يتعارض مع فكرة الأمة الإسلامية والوحدة الثقافية وتمثل التعليم الإسلامي في حفظ القرآن عن ظهر قلب وحفظ المسائل الفقهية لعلماء في الشريعة الإسلامية في المساجد والمدارس القرآنية والزوايا »⁽⁵⁵⁾.

ويصف " لوتورنو " عمق هذا التعليم بقوله: « لقد كان تدريس العلوم الإسلامية مهما في تكوين الشباب وكانت العلوم الدنيوية قليلة كما لم يكن للمنطق مكانة مهمة في تلك البرامج ولم تحظ بقية العلوم الأخرى بالأهمية كالجغرافيا والتاريخ والكيمياء

واقترنت الرياضيات على العمليات البسيطة في تقسيم الإرث ومحمل القول لقد كانت ثقافة ثابتة وراكدة مثلها مثل التنظيم الاجتماعي والأخلاقي» (56). كما يرى هذا الكاتب بأن هناك ثلاثة أنواع للغة العربية:

- اللغة العربية العصرية (سينما- راديو- الصحافة الوطنية): وتتميز بالمحافظة على شكلها التقليدي غير أن مفرداتها مليئة بكلمات مأخوذة عن أوروبا.

- اللهجات العربية: وهي وسيلة للتعبير الشفوي ونلاحظ فيها عدة لهجات حضرية وبدوية غير أن هذا الاختلاف في اللهجات لا يمثل عائقا في عملية الاتصال و التفاهم.

- يضاف إلى النوعين السابقين اللهجات البربرية واللغة الفرنسية وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال هام وهو: هل وجود هذا التنوع في اللهجات يمثل عائقا أمام الوحدة اللغوية المغربية؟ إن الجواب هو لا لأن دخول المغرب في الإسلام تم عن طريق اللغة العربية وهذه حقيقة تاريخية كما أن الحفاظ على هذه اللهجات خلق ثقافة مغربية غنية.

وهكذا نرى أنه إذا كانت الوحدة المغربية تعرف من خلال جغرافيتها وتاريخها المشترك فهي تترجم كذلك في التنوع الثقافي البربري - العربي الإسلامي الملتح بالثقافات الغربية وفي هذا يقول " ميشال جوبار " : « إذا كانت الثقافة واحدة في تنوعها فكل المغربية مسلمين سنين » (57).

لقد حاولت فرنسا الاستعمارية جاهدة ومنذ دخولها إلى بلاد المغرب العربي فرض لغتها إذ أصبحت الفرنسية اللغة الرسمية في الإدارات والمؤسسات التعليمية والثقافية كما كانت لغة التخاطب بين أفراد المجتمع والمحتلين والحال نفسه بالنسبة لقطاع القضاء. لقد كان لفرنسا عدة أهداف من وراء ذلك:

- اقتلاع المغرب من جذوره الثقافية العربية الإسلامية.

- تحضير أجيال جديدة متشعبة بالثقافة الفرنسية لبناء مستقبل في اتجاه العالم الغربي.

لقد كان لهذه السياسة الاستعمارية آثار خطيرة وانعكاسات سلبية على مستقبل اللغة العربية كان من نتائجها ذلك الإرث التاريخي الثقافي الموروث عن الاستعمار الغربي الذي دام مدة طويلة وشكل في النهاية عائقا كبيرا أمام مشروع التعريب والعودة إلى الأصل كما عبر عنه أحد الكتاب بقوله: « منذ ولوج اللغة الفرنسية إلى النسيج المغربي لأكثر من قرن خلقت تحولات عميقة في جميع مجالات الحياة العامة» (58).

لقد عمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى تكوين نخبة مغربية تكوينا ثقافيا ولغويا فرنسيا و حظيت هذه النخبة بامتيازات كبيرة وهي التي شكلت بعد الاستقلال، القوى الأساسية التي اعتمدت عليها الحكومات المغربية وكانت من العوامل المعرقة لعملية التعريب كما يعلق على ذلك إبراهيم سعد الله بقوله « إن كل مشروع تعريب ينظر إليه نظرة سيئة من طرف ورثة الاستعمار الذين لديهم سلطة المال والسياسة في الدولة فالتعريب بحاجة إلى استقلال ثقافي للمغرب و التفتح على العالم المعاصر» (59) وهو ما يذهب إليه أيضا كاتب آخر بقوله « أن هذه النخبة المتفرنسة تدافع عن تطبيق اللغة الفرنسية داخل الإدارة و التعليم متحججة بأنها لغة تطور و عصره ... » (60).

وقد ترتب عن ذلك مواجهة بين أنصار الفرنسية وبين المدافعين عن اللغة العربية تجاوزت المجال اللغوي إلى مجالات الاختيارات السياسية و الاقتصادية للبلدان المغربية، وأصبحت القضية تشكل أزمة إيديولوجية أو ما يسميه البعض بأدلة اللغة دون التركيز على المجال الحيوي للغة باعتبارها عامل تطور علمي و حضاري، والنظر إلى المسألة على أنها تكامل بين لغات تخدم في النهاية مستقبل البلاد المغربية كما يقول الكاتب (قيوم) : « نجد أنفسنا في المغرب أمام إرادة رسمية للتعريب و أمام وضعية ازدواجية ناتجة عن إرث و ضرورة منها اللجوء إلى التعاون في الميدان العلمي » (61). وهو ما يذهب إليه كاتب آخر للتصديق على أن أي لغة مهما كانت قوتها و مكانتها و انتشارها غير قادرة على استيعاب الثقافة العالمية حيث يقول: « إن معرفة اللغة

الأم ضرورة وطنية تاريخية وعضوية و من غير المنطقي الاعتقاد أن اللغة العربية كافية للإجابة عن كل الاحتياجات إذ كل لغة اليوم مفتوحة على الأخذ و العطاء تجاه اللغات الأخرى فكلما تكلمنا عدة لغات ازدادت أفاق الاتصال و الحوار «62».

كما يجب التنبيه إلى نقطة مهمة جدا وهي أن اللغة العربية لم تدخل في صراع مع اللهجات الأمازيغية بل احتلت مكانتها بعفوية و تقبلها السكان برحابة صدر وهم الذين أعطوها تلك المكانة والصدارة ولم تفكر القبائل أو الدول التي ظهرت ببلاد المغرب العربي عبر تاريخه الطويل و منها (الزبانيون. الزيريون. الحماديون الممتونيون) في اتخاذ لهجة من اللهجات الأمازيغية بدل اللغة العربية كلغة للعلم والثقافة والحضارة، وحتى اللهجات العربية التي جاءت من بعد مع هجرات قبائل بني هلال وبني سليم في القرن الرابع للهجرة انتشرت بشكل عفوي وكبير وأصبحت لهجة اتصال غالبية السكان فيما بينهم.

إن ما يمكن استخلاصه من هذا العرض هو:

- أن اللغة العربية لم تعد لغة الحكام أو الطبقة المحيطة بهم بل أصبحت لغة جميع الشعوب المغربية على اختلاف لهجاتهم و ثقافتهم .

- أصبحت اللغة العربية عامل وحدة و عنصر جامع بين أبناء المغرب العربي وقلصت من نفوذ و انتشار اللهجات المحلية التي قد تدفع إلى التفرقة و التمييز والاختلاف و حتى إلى الشقاق بين شعوب المنطقة.

- سهلت من عملية النشاط التجاري و التبادل الثقافي بعد تحولها إلى لغة اتصال قوية بين مختلف المناطق المغربية.

و هكذا كان للغة العربية دورا بارزا في توحيد و توطيد أواصر الأخوة والوحدة بين أبناء المغرب العربي و يبرز لنا هذا الدور أكثر عند الحديث عن المراكز الثقافية التي ظهرت ببلاد المغرب العربي ومنها على وجه الخصوص القيروان التي تحولت إلى عاصمة ثقافية وعلمية للمغرب العربي و هذا من خلال مدرستها التي ذاع صيتها في عهد الاغالبية والفاطميين و الزيريين فكانت مراكز للإشعاع الفكري و الثقافي و العلمي وحدت بين عقول المتعلمين من مختلف أقطار المغرب العربي(63) و هو ما ينطبق أيضا على المساجد التي كان العلماء ينشرون بها التعاليم و التوجيهات والوعي الذي يصب في اتجاه واحد و هو خدمة التضامن والوحدة المغربية في إطار التكافل و التعاون و الأخوة بين أبناء المغرب العربي .

نستخلص من هذا العرض أن اللغة العربية شكلت دائما ومازالت تشكل أهم عنصر من عناصر المقومات و الأسس المشتركة لبناء وحدة المغرب العربي باعتبارها عامل تقارب وأداة اتصال بين شعوب المغرب العربي، إلى جانب بقية المقومات الأخرى و منها العامل الديني الذي يساهم بدوره في عملية التقارب كما سنوضحه في الفرع الآتي.

الفرع الثاني: الوحدة الدينية:

لقد أحدث الإسلام هزة كبيرة في المنطقة المغربية بل وجعل حياة شعوبها تتحول تحولا جذريا، وأصبح بذلك الرابطة الأكثر تأثيرا في تلاحم شعوب المنطقة

حيث تشكلت وحدة دينية أصبحت مع مرور الأيام تطبع المنطقة بطابعها الخاص بل وأصبحت تسمى كما سبق وان اشرنا سابقا " بالمغرب الإسلامي " وهكذا وحسن حظ شعوب هذه المنطقة توحدت اللغة والعقيدة وهما أهم رابطتين وأقوى مقومان يمكن أن يجتمعا في أي شعب وبالتالي ساهما في توحيد مشاعر وأحاسيس ورغبات وآمال وألام وطموحات شعوب هذه المنطقة وشكل الإسلام كعقيدة والعربية كلسان الوعاء الحضاري والثقافي الذي جمعها في بوتقة واحدة(64) .

لقد شكل الدين دائما ومازال يشكل إحدى أهم العناصر المشكلة للامة الواحدة باعتباره العنصر الروحي الذي يعطي للامة قوتها و تماسكها و شعورها بأنها جسم واحد بل ويعتبر الدين أقوى عنصر في المقومات التي تجمع بين أفراد أمة أو شعب لأنه يشكل الامتداد الروحي بين الأفراد وهو ما يشعرهم بأنهم إخوة و هذا ما عبر عنه أحد المفكرين بقوله: « قد لا تكون الوحدة الدينية أو الروحية في الحضارة الاجتماعية ضرورة لقيام الوحدة السياسية أو ركننا من أركانها حيث تتوحد اليوم هذه الوحدة

في كثير من البلاد التي تتعدد فيها الأديان و النحل و المذاهب غير أنه لا ينكر أن هذا التعدد كان إلى ما قبل مئة سنة عقبة في طريق الوحدة كما أن توفر الوحدة الدينية والروحية في وطن ما يجعل قيام الوحدة بين أبنائه و أجزائه أيسر تحقيقا وادعى إلى التوافق و الترابط بين أبناء الوطن وأجزائه «(65)» .

وهذا ما يؤكد الشيخ عبد الحميد بن باديس في إحدى كتاباته حيث يقول في مقال له تحت عنوان " ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان " : « إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام مند بضعة عشر قرنا ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرءاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر و توحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام... »(66).

ومن الناحية التاريخية كما ذكر العلامة ابن باديس كان الإسلام عامل وحدة للشعوب المغاربية التي تبنته بعد الفتح العربي الإسلامي كما يقول " الدوري " : « لقد حظي المغرب بدين لم يكن له الفضل في تماسكه فقط وإنما بربطه بالعالم العربي »(67).
لقد لعب الدين الإسلامي دورا واضحا في تطور المجتمع المغاربي وهو ما يؤكد أحد الكتاب بقوله : « قبل التوغل الأوربي كان للإسلام دورا في التماسك الاجتماعي و الإيديولوجي لم يكن يمثل مجموعة تعاليم فقط ولكن كان يحمل نمطا تنظيميا كذلك »(68).

لقد سمح الفتح العربي الإسلامي بأسلمة المغرب تاركا الحرية للسكان الأصليين في المشاركة في نشره.
لقد سهلت التجارة عبر الصحراء الاتصالات بين سكان المغرب و بين التجار القادمين من المشرق لقد كانت نقاط الالتقاء مراكز تجارية ودينية في أن واحد.

حاليا وفي كل بلاد المغرب العربي كل السكان هم مسلمون سنيين ينتمون للمذهب المالكي باستثناء مجموعة قليلة ممثلة فيما يسمى ببني ميزاب في الجزائر وتونس(69).

صحيح أن هناك العديد من المذاهب التي ظهرت في المغرب العربي لكن ومنذ عهد الموحدين دخل كل السكان في المذهب المالكي وهو المذهب الوحيد المطبق في بلاد المغرب العربي مند 1160 سنة كما أسلفنا الذكر.

بالرغم من بعض المؤثرات ظل الإسلام يسير تاريخ شعوب المغرب العربي بصفته كدين وأداة تنظيم اجتماعي-سياسي، لقد بقي يمثل الرابطة القوية بين كل شعوب المغرب العربي وهو ما يؤكد أحد الكتاب بقوله : « إن الفضل يعود إلى الإسلام الذي وحد لحمة العرب سياسيا وأعطى للعالم العربي ملامحه الثقافية »(70).

كما كان للإسلام كعقيدة القول الفصل في تعبئة شعوب المغرب العربي ضد الاستعمار الفرنسي بحيث شكل الجدار الصلب الذي انكسرت عليه كل المحاولات الاستعمارية الرامية إلى النيل من عقيدة الشعوب المغاربية وقيمها العربية الإسلامية وهذا ما يذهب إليه الكاتب نفسه عندما يقول: " كان للإسلام الدور الكبير في التماسك الاجتماعي إذ ما أن اتخذ الاستعمار أسلوبا عدوانيا حتى هب الإسلام النفوس للتصدي والدفاع " (71). وهو ما يسميه " ماكسيم رودنسون " : « عقيدة حب الوطن »، أو « دين الوطنية » كما يسميها " ألبرت حوراني(72) ، هذه العقيدة التي شحذت هممة الأمير عبد القادر في حربه ضد الاحتلال الفرنسي العاشم، لقد قام ليس فقط من اجل محاربة المستعمر الفرنسي ولكن من اجل حماية العقيدة الإسلامية أيضا.

إن للدين الإسلامي تأثيرا كبيرا جدا على الناس، إنه إسمنت حقيقي يربط الشعوب ببعضها البعض وقد يختلف بعض الأفراد في المغرب العربي بالنسبة للغة والتاريخ أو بعض التوجهات و القناعات الثقافية لكن عند الحديث عن الدين الجميع دون استثناء متفقون في هذا الأمر وهو ما أكده الباحث " نذير معروف " في دراسته حول وحدة المغرب العربي حيث توصل إلى نتيجة عبر عنها بقوله: « لقد أدركت إلى أي مدى أن هؤلاء الناس لا يتكلمون لا عن الجزائر ولا المغرب ولا تونس مرتكزين في تحليلهم على أن الإسلام لا يعترف بالحدود »(73).

لقد تجلّت هذه الوحدة الدينية بين شعوب المغرب العربي خصوصا في الأوقات الصعبة والحرجة التي ألقى فيها الاستعمار بكلّ كفه على الشعوب المغاربية وإن عليها ظلام الاستعمار بعدوانيته وعنصريته و قساوته و شروره، ومن هذه المحطات الخطيرة والصعبة في حياة المغاربة ثورة الأمير عبد القادر الجزائري و كذلك ثورة الريف التي قادها الثائر البطل الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ضد الاحتلال الإسباني⁽⁷⁴⁾ حيث ظهرت مشاعر التضامن والأخوة والمصير المشترك وعبرت عن نفسها فيما حدث من وحدة في المقاومة وتعاون في صد العدو الأجنبي، كما لوحظت تلك المشاعر والمظاهر في حرب تحرير البلدان المغاربية كما سيأتي شرحه فيما بعد.

إن التضامن الديني في المغرب العربي تترجمه لنا مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري فعندما وجد صعوبات في مقاومته للقوات العسكرية الفرنسية لجأ إلى المغرب الأقصى سنة 1843م وطلب من علماء فاس فتوى لإعلان الجهاد ضد الكفار الذين غزوا أرض الإسلام وهناك قابل السلطان عبد الرحمن بن هشام لطلب مساعدته باسم الشرعية الإسلامية وقد استجاب السلطان لطلبه .

لقد كان لثورته التي كان لها طابعا دينيا بحتا صدى واسعا عبأ سكان الجنوب الغربي التونسي الذين تربطهم علاقات عائلية بسكان المناطق الجزائرية المجاورة، ضف إلى ذلك عامل الأخوة في الدين التي تعتبر أن لا حدود في الإسلام و التضامن نفسه تجلّى أثناء ثورة المقراني عام 1871 كما كان لبعض الأحداث التي مست الإسلام مباشرة الأثر القوي في إيقاظ الشعور الديني لدى شعوب المغرب العربي ومن هذه الأحداث نذكر:

- الاحتفال الذي جرى بالعاصمة الجزائرية بمناسبة مرور 100 عام على سقوط الجزائر العاصمة بين يراثن الاستعمار.
- انعقاد مؤتمر القربان المقدس الدولي في قرطاج بتونس في 11 مايو 1930 .
- وهو ما ذكره المؤرخ الفرنسي شارل روبر أجيرون بقوله: « لم يتأخر شباب من المغرب المتواجدين في باريس من بعث تلغرافات يعبرون فيها عن مساندتهم لاحتجاجات إخوانهم ورفضهم لانعقاد هذا المؤتمر على أرض الإسلام »⁽⁷⁵⁾.
- إعلان الظهير البربري في 16 مايو 1930 والذي حاولت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من خلاله التفريق بين البربر والعرب في المغرب الأقصى بإمكانية عدم خضوع البربر لقانون الشريعة الإسلامية وقد واجه هذا القانون أو المشروع مقاومة عنيفة من السكان وباءت هذه المحاولة بالفشل الذريع⁽⁷⁶⁾.

لقد جوّهت هذه الأحداث الخطيرة بحركات احتجاجية كبيرة وهذا نظرا لانعكاساتها السلبية والخطيرة على عقيدة شعوب المغرب العربي التي كانت مستهدفة بالدرجة الأولى من قبل أصحاب هذه المشاريع وقد أشار إلى ذلك أحد الكتاب بقوله: « إن هذه الأحداث الثلاث لم تكن مجرد صدفة ولكن كانت عن قصد بحيث أراد المسيحيون من خلالها تمسيح الريف المغربي وتحقيق أمنية الكاردينال لا فيجيري »⁽⁷⁷⁾.

وكان من ردود الفعل ما جاء على لسان جريدة الشهاب حيث كتبت عن ما سمته ((المجاهدة في أرض الإسلام))،⁽⁷⁸⁾ كما اندلعت عدة مظاهرات بتونس منددة بانعقاد المؤتمر المسيحي وهدفه الحقيقي التصدي للإسلام بإفريقيا الشمالية وهي المقاصد نفسها لمشروع الظهير البربري بمنطقة الريف بالمغرب الأقصى.

لقد أصبح مفهوم الأمة روحا تسري في عروق أبناء المغرب العربي والذي يتعارض في نظر الشريعة الإسلامية مع التمسك بالحدود الوطنية على الأقل لدى غالبية أبناء المغرب العربي الذين يرون في هذه الحدود تعارضا مع الإسلام من جهة، وحواجر مصطنعة أوجدها الاستعمار وكرستها الأنظمة السياسية التي تعاقبت على الحكم بعد ذلك.

وكما يرى (أركون): « فان الشعور بالانتماء إلى الأمة شعور يومي في المغرب العربي، إنه السلوك الذي يميز روح التضامن إذا ما تعرض بلد شقيق إلى عدوان هذا الشعور بالانتماء إلى الأمة يحرك العالم الإسلامي من اندونيسيا إلى المغرب »⁽⁷⁹⁾.

والملاحظ أن الإسلام كما هو معروف دين الدولة في كل البلدان المغاربية وقد نصت دساتير هذه الدول ومواثيقها على ذلك صراحة وفي مواد محددة وواضحة كما ألزمت المرشح لرئاسة الجمهورية بأن يكون مسلما ويؤدي اليمين الدستورية بعد انتخابه مباشرة.

هكذا إذن نرى بأن الإسلام في المغرب العربي يمثل همزة وصل ذات أهمية كبرى هذا العامل في الشخصية المغاربية ذو الأبعاد التاريخية، لقد حمل ثقافة عربية فهو نظام ديني واجتماعي لكل سكان المغرب العربي.

لقد أعطى الإسلام لهذه الشخصية بعدا جديدا واستقلالية تامة وأكد الاتجاهات الوحدوية سواء في ميدان الاقتصاد أو الفكر أو الثقافة كما أعطى لهذه الشخصية الأدوات التي مكنتها من تطوير شخصيتها وتوحيدها ونذكر من هذه الأدوات:

1- **الدولة:** كرس الإسلام مفهوم الدولة في المغرب العربي كفكرة وبنية شمولية جديدة تعارض كل البنيات الجزئية القديمة وتنتهي بالسيطرة عليها أو تكييفها بصورة من الصور وهكذا ظهرت مع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب محاولات جادة لبناء دول كبرى باسم الإسلام فظهرت على سبيل المثال الدولة الأغلبية و الدولة الإدريسية.

2- **الأمة:** الأمة واحدة في الإسلام بينما الدولة قد تتعدد فالأمة إذن إطارا توحيديا يضم سائر المسلمين تحت سلطة قانون واحد - **الدعوة:** لعبت الدعوة مع بداية الفتوحات الإسلامية وبعدها دورا كبيرا وشكلت رباطا جمع بين جميع مناطق وأجزاء بلاد المغرب العربي وهكذا جمعت العقيدة الإسلامية ووحدت بين أبناء المغرب العربي (80)

3- **المسجد:** لعب المسجد كمؤسسة اجتماعية وشعبية لها اتصال واسع بعامه الناس دورا بارزا في التربية والتعليم ونشر الثقافة الإسلامية الموحدة والتي انعكست بدورها على توحيد التفكير والتوجه (81).

4- **الاقتصاد:** كان للنشاط الاقتصادي الذي عرفته بلاد المغرب العربي بعد الفتوحات الإسلامية الأثر الكبير والفعال في الربط بين المناطق التجارية و بالتالي أدى إلى ربط علاقات قوية بين أبناء المغرب العربي و تطوير الحياة الاقتصادية وتحريك طرق تجارية جديدة ساهمت إيجابيا في تكوين و نشوء وحدة اقتصادية مغاربية بين مختلف مناطق بلاد المغرب العربي.

إن هذه الأدوات وغيرها كالمدينة والرباط والزواية ساهمت في نمو الثقافة الوحدوية وتكريس الاتجاه الوحدوي المغاربي و قد انعكست هذه الأدوات إيجابا على بلاد المغرب العربي و تولدت عنها عدة مظاهر يمكن ذكرها في الآتي:

1- توحيد الحياة الدينية والروحية عبر كامل بلاد المغرب العربي ويظهر لنا ذلك في عدة صور منها المناسبات الدينية، الشعائر الدينية، أنماط العمران ومختلف مظاهر الثقافة.

2- التلاحم البشري المتواصل: كان لانتقال الأفراد بسبب النشاط التجاري أو الديني أثر في نشوء روابط اجتماعية بين أبناء المغرب العربي ازدادت قوة و متانة بمرور الأيام و ترتب عنها ظهور أنماط ثقافية مشتركة و أصبحت تشكل الوعاء الثقافي لبلاد المغرب العربي من فنون شعبية و مظاهر احتفالية جماعية و تراث شعبي يعبر عن ملاحم و بطولات أبناء المغرب العربي التي انتشرت في طول البلاد و عرضها على شكل قصص و أزجال عامية تناولت بطولة أبو زيد الهلالي التي تحدث عنها ابن خلدون و كذلك رباعيات عبد الرحمان المجذوب التي أصبحت على كل لسان في مشرق المغرب العربي و مغربه.

3- توحيد اللغة: عرفت اللغة العربية و في فترة و جيزة تطورا ملحوظا على حساب اللهجات الأمازيغية التي كانت سائدة من قبل في بلاد المغرب العربي وأصبحت اللغة العربية هي لغة الاتصال التي قامت عليها حياة المجتمع الحضاري فكانت هي لغة الإدارة و التدريس والكتابة و التأليف و القضاء و الحياة الدينية و تحولت إلى لغة رسمية في جميع الميادين و بذلك تحولت إلى عامل توحيد وتقارب بين شعوب المغرب العربي فوحدت اللسان ووحدت المشاعر و التفكير.

4- دور التراث الأندلسي: و لو انه لا يندرج ضمن الأدوات التي حددناها سابقا وما تولد عنها من مظاهر عملت على توحيد الحياة الدينية و الاجتماعية و الثقافية (اللغوية) للمجتمع المغاربي، إلا أنه لعب دورا هاما في توحيد المجتمع الثقافي المغاربي الذي

اعتبره تراثا مشتركا بين أبنائه، الذين يرون أنهم الورثة الحقيقيين لهذا التراث و ملزمين بالمحافظة عليه ونشره و التعريف به كما هو الحال مع تراث الهندسة المعمارية الأندلسية التي تعلق بها المغاربة و انعكست على تصميمهم العمرانية و كذلك الحال مع الموسيقى الأندلسية التي تعتبر قاسما فنيا مشتركا بين جميع أبناء المغرب العربي(82).

و للدلالة على الدور المؤثر و الفعال الذي لعبه الإسلام في تمتين روابط الإخوة والتضامن و الوحدة بين أبناء المغرب العربي نشير إلى مكانة الإسلام كعقيدة في حياة المجتمع المغربي بحيث نال القسط الوافر من كتابات الكتاب و المؤرخين و العلماء وكذلك الحال بالنسبة للشعراء الذين تغنوا بالإسلام و مجدوه في أشعارهم وهو على حد قول احد الكتاب الذي خص بالحديث الشعراء الجزائريين - لا يجسد فقط الركن الركين من الكيان الجزائري بقدر ما هو رابطة متينة و عروة و ثقى تشد أبناء القطر الشمالي كله و توحد بين شعوبه المتأخية إضافة إلى ما يوحد بينهم من الأوشاج العربية. هذه الفكرة برزت في القصيدة التي خاطب فيها الشاعر (عبد الرشيد مصطفى) طلبة شمال إفريقيا المسلمين في مؤتمرهم الذي عقد بتونس شهر أوت 1931 حين وقف يذكرهم بالوشائج الإسلامية و بنور الإسلام الذي ليس يخبو و لم ينفك هاديا و إماما لوحدة شعوب هذه الأقطار المغربية:

أرى الإسلام نورا ليس يخبو	و لم ينفك للهادي إماما
لقد ضم الجزائر وهي خود	إلى الخضرا ومراكش ضماما
فكن به فرائد ساحرات	رأيت التاج يسطع والحزام
وكان لهن من أبناء سام	اسود شرى عزيز أن تراما
فألف بينهم دين دعاهم	لينزلهم من الخلد المقاما

ونختم حديثنا عن المقومات والقيم الأساسية المشتركة التي ساهمت و تساهم في بناء وحدة المغرب العربي بتقرير يؤكد ما ذهبنا إليه بشأن الحديث عن الدور المؤثر والهام والفعال الذي تلعبه هذه المقومات في تكريس الوحدة بين أبناء وشعوب المغرب العربي، حيث جاء في تقرير "كامبل بانرمان" الصادر عن ممثلي الدول الاستعمارية الأوروبية عام 1907م ما يأتي: «... إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار، لأنه الجسر الذي يصل الشرق بالغرب والممر الطبيعي إلى القارتين الآسيوية والإفريقية وملتقى طرق العالم... ويكمن الخطر المهدد للعالم في هذا البحر، ففي حوضه مهد الأديان والحضارات وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية، يعيش شعب واحد له من وحدة تاريخه ودينه ولغته وأماله كل مقومات التجمع والترابط والاتحاد وتتوافر له في ثرواته الطبيعية وكثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض، ويكمن الخطر على كيان الإمبراطوريات الاستعمارية في تحرر هذه المنطقة وتنقيف شعوبها وتطويرها وتوحيد اتجاهاتها وتجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة، ولهذا فان على الدول ذات المصالح المشتركة، أن تعمل على استمرار وضع هذه المنطقة الجزأ و المتأخر وعلى إبقاء شعوبها على ما هو عليه من تفكك و جهل وكوسيلة لانجاز هذا الهدف، يوصي التقرير بضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي، عن طريق إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا ويربطهما معا بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث تقوم في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة...».

ما يمكن استنتاجه من هذا التقرير يؤكد ما سقناه سابقا من تأكيدات بأن هذه المقومات المشتركة هي الأرضية الصلبة التي بنيت عليها بعض المحاولات الوحدوية في المغرب العربي والتي يمكن لنا كذلك أن نبي عليها حاضرا ومستقبلا صرح الوحدة المغربية إذا ما توفرت بعض الشروط الأخرى المساعدة في هذه العملية ومنها على وجه الخصوص توفر الإرادة السياسية والرغبة الحقيقية الصادقة والقرارات الثورية الرامية فعلا إلى تجسيد هذا المشروع الذي كان و مازال حلم الملايين من أبناء المغرب العربي.

المراجع والمصادر

1. ¹ - وزارة الشؤون الدينية: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ج4 ط1 مطبعة البعث قسنطينة، سنة 1985، ص17.
2. ¹ - تركي رايح: "التعليم القومي و الشخصية الجزائرية"، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981، ص52-53.
3. ¹ - سمير أمين: "المغرب العربي الحديث"، ترجمة: كميل، ق، داغر، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1981، ص7.
4. ¹ - الهرماسي محمد الصالح: مقارنة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، ط1، دار الفكر، دمشق 2001 ص35.
5. ¹ - العقاد صلاح: "السياسة و المجتمع في المغرب العربي" معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة 1971، ص171.
- 5- Yves Lacoste : " Maghreb, peuple et civilisation", sous la direction de Camille et Yves Lacoste, ed la découverte, paris 1995. P 45.
6. ¹ - شارل أندري جوليان: " تاريخ إفريقيا الشمالية"، تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1969، ص10.
7. ¹ - الرشيد إدريس: "كبان المغرب و آفاقه". في كتاب: " بناء المغرب العربي، أشغال ملتقى بناء المغرب العربي بتونس، 19-24 أكتوبر 1981، الجامعة التونسية، المطبعة العصرية، تونس 1983، ص43-44.
- * - الإفري: يقصد بها سكان الكهوف و المغارات لأن أصل كلمة الإفري هي " أفرن " و معناها بالأمازيغية " الكهف ".
8. ¹ - موسى لقبال: " المغرب الإسلامي مند بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورة الخوارج"، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1964، ص13.
9. ¹ - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص12.
- * - يرى ابن خلدون أن كلمة " إفريقية " نسبت إلى ملك حميري يدعى " إفريش ". لمزيد من المعلومات أنظر: تاريخ ابن خلدون، ج6.
10. ¹ - مبارك الملي: " تاريخ الجزائر في القديم و الحديث"، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1976، ص29.
11. ¹ - مبارك الملي: المرجع السابق، ص30.
- * - الإتحاد المغاربي: هو مصطلح يطلق على دول المغرب العربي الخمسة و قد أعتد بتاريخ 19 مارس 1983 أثناء توقيع معاهدة الإخاء و التعاون بين تونس و الجزائر و رسم سنة 1989 بحيث أصبح يعبر عن كتلة سياسية و إقليمية واحدة.
12. ¹ - عبد الله العروي: "مجموع تاريخ المغرب"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1984، ص30.
13. ¹ - المجاري محمد الصالح: "النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900-1962)"، تونس 1983، ص (17-20)
- * هذه نظرية أو مقولة استعمارية يهدف أصحابها إلى زرع التفرقة بين سكان شمال إفريقيا ضمن سياسة فرق تسد و لم نجد لها سندا أو دليلا في التاريخ.
14. ¹ - د/هلال عمار: «أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)» ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص8.
15. ¹ - أ.د. الناظوري رشيد: "المغرب الكبير"، ج1، ط1، القاهرة 1966، ص62.
16. ¹ - د/ هلال عمار: المرجع السابق، ص6
17. ¹ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: "تاريخ الطبري"، تحقيق: محمد أبو الفضل، ج1، دار المعارف بمصر 1960، ص206.
18. ¹ - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: "كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ج3، دار الجليل بيروت، ص176. أو أنظر: الهرماسي محمد عبد الباقي: "المجتمع و الدولة في المغرب العربي"
19. ¹ - ويليم لانجر "موسوعة تاريخ العالم، ترجمة د/ محمد محمود الصياد، ج1، مكتبة النهضة المصرية، 1959، ص25-33.
20. ¹ - أبو خلدون ساطع الحصري: "ماهي القومية؟"، طبعة خاصة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1985، ص31.
21. ¹ - تركي رايح: المرجع السابق، ص44.
22. ¹ - المرجع نفسه، ص44.
23. ¹ - Charle André Julien : « histoire de l'Afrique du nord, des origines à la conquête arabe » T1, payot, Paris 1964.

24. ¹ - أبو خلدون ساطع أخصري: "ماهي القومية؟"، طبعة خاصة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1985، ص 31
25. ¹ - تركي رايح: المرجع السابق، ص 44
26. ¹ - صلاح العقاد: "المغرب العربي، دراسة في تاريخه الحديث و أوضاعه المعاصرة"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1980، ص 19.
27. ¹ - Despois jaune : « l'Afrique du Nord 1920-1960 », 3^{eme} ed., T1, Paris 1964, p36. -
- * - بلدان الأطلس هو الاسم الذي أعطاه اليونانيون لمجموع الجبال التي كانوا يرونها من بواجرهم التي كانت تسيطر على الساحل.
28. ¹ - Gautier : « l'Afrique blanche », fayard, Paris 1939, p151. -
29. ¹ - Buraut (P) et Drexh (j) : « la méditerranée et le moyen orient » : T1, Paris 1953, p424. -
30. ¹ - Flory et Mantran : « les régimes politiques des payes arabes », Paris 1968, p19 -
31. ¹ - Gautier : op.cit, p151 -
32. ¹ - Despois (j), op.cit, p108 -
33. ¹ - صلاح الدين الشامي و فؤاد محمد الصقار: " جغرافية الوطن العربي الكبير "، ط3، منشأة المعارف، الإسكندرية 1975، ص 81.
34. ¹ - رضوان عينا ثابت: مقال: " تصورات حول المغرب الكبير "، المجلة الجزائرية للعلاقات الدولية، العدد 6، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987، ص 46.
35. ¹ - الحواس رياش: تقدم لكتاب: " المغرب العربي " مؤلفه محمد التومي، المجلة الجزائرية للعلاقات الدولية، العدد 12، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 82.
36. ¹ - Gautier : op.cit., p151. -
37. ¹ - ناصر الدين سعيدوني: مقال: " التاريخ و أهميته في بناء الوطن "، مجلة الباحث، العدد 2، المطبعة المركزية للجيش، الجزائر نوفمبر 1984، ص 91.
38. ¹ - ناصر الدين سعيدوني: مقال: " وحدة المغرب العربي بين الحتمية التاريخية و الواقع المعاش "، المجلة الجزائرية للعلاقات الدولية، العدد 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 56.
39. ¹ - نور الدين الدقي: "المغرب العربي و الاستعمار الفرنسي"، سراس للنشر. تونس 1997، ص 140.
40. ¹ - مولود قاسم نايت بلقاسم: مقال: "لحمة عن مجد الجزائر و ديمومة شخصيتها البارزة عبر العصور و الأعاصير"، مجلة الثقافة، السنة 15، العدد 85، جانفي/ فيفري 1985، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وزارة الثقافة، ص 42.
41. ¹ - نور الدين الدقي: "المرجع نفسه، ص 20.
42. ¹ - مولود قاسم نايت بلقاسم: مقال: " اللغة و الشخصية في حياة الأمم "، مجلة الثقافة، السنة الأولى، العدد 2، ماي 1971، ص 7.
43. ¹ - المرجع نفسه، ص 18.
44. ¹ - Roger Le tourneau : « évolution de l'Afrique du Nord musulmane (1920-1961) », -
- Armand Collin, Paris 1962, p46.
45. ¹ - عبد المالك مرتاض: مقال: " المسيرة التاريخية للتغريب في الجزائر "، مجلة الثقافة، العدد 4، الجزائر 1971، ص 41.
46. ¹ - صلاح العقاد: المرجع السابق، ص 9.
47. ¹ - تركي رايح: المرجع السابق، ص 65.
48. ¹ - زينير محمد: مقال " دور الثقافة في بناء المغرب الكبير "، مجلة المستقبل العربي، السنة الثامنة، العدد 97، سبتمبر 1985، ص 42-67.
49. ¹ - زينير محمد: المرجع نفسه، ص 42-67.
50. ¹ - Toumi (M) : « le Maghreb arabe », paris 1982, p25 -

51. ¹ - حسان محمد: " الجذور التاريخية للتعريب في المغرب أو تطور الوعي الوطني في المغرب العربي "، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1986، ص 119.
52. ¹ - علال الأهر: " المسألة الوطنية، التيار البربري وبناء المغرب الكبير "، دار الخطابي، الرباط المغرب 1984، ص 74.
53. ¹ - Laraoui (A) : « l'histoire du Maghreb », un essai de synthèse, Fondation, paris 1982, - p121.
54. ¹ - Despois (J) : « l'Afrique du Nord », op cit, p156.
55. ¹ - محمد زنيبر: المرجع السابق، ص 42-67.
56. ¹ - Letourneau Roger : op-cit, p38.
57. ¹ - Jobert (M) : « Maghreb à l'ombre de ses mains », Albin Michel, Paris 1985, p144 .
58. ¹ - Paris,1986, Moatassim (A) : « Langue française et pluralité au Maghreb », Diort , - p121.
59. ¹ - سعد الله إبراهيم: " ملتقى حول التعريب " مركز دراسات الوحدة العربية 1982، ص 80.
60. ¹ - Nazli (A) : « l'arabisation au Maghreb arabe », p163.
61. ¹ - Cran guillaume (J) : « arabisation et politique linguistique au Maghreb », maison - neuve et Larousse, Paris 1983, p31.
62. ¹ - سعد الله إبراهيم: المرجع السابق، ص 75
63. ¹ - رابح بونار: "المغرب العربي، تاريخه و ثقافته"، الطبعة 2، ش و ن ت، الجزائر 1981، ص 330
64. ¹ - غانم محمد الصغير: مقال: " مدخل للعلاقات الحضارية بين المغرب و المشرق القديمين "، مجلة العلوم الإنسانية العدد 2، جامعة منتوري قسنطينة، ص 34.
65. ¹ - العقاد صلاح: " المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث و أوضاعه المعاصرة "، مرجع سابق، ص 9-10.
66. ¹ - تركي رابح: المرجع السابق، ص 36
67. ¹ - الدوري (أ): " التكوين التاريخي للأمة العربية "، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984، ص 70.
68. ¹ - Mellah(F):« l'unité arabe, essai d'interprétation critique », L'harmattan, Paris 1985, - p40.
69. ¹ - Mellah(F):« l'unité arabe, essai d'interprétation critique », L'harmattan, Paris 1985, - p40.
70. ¹ - IBID, p39/40.
71. ¹ - IBID, p42.
72. ¹ - ألبرت حوراني: "الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939"، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت 1968، ص 275.
73. ¹ - Maarouf (N) : « Les transformations sociales maghrébines in l'unité du Maghreb», - OC, p59.
74. ¹ - Toumi (M) : OP-CIT, p61 -